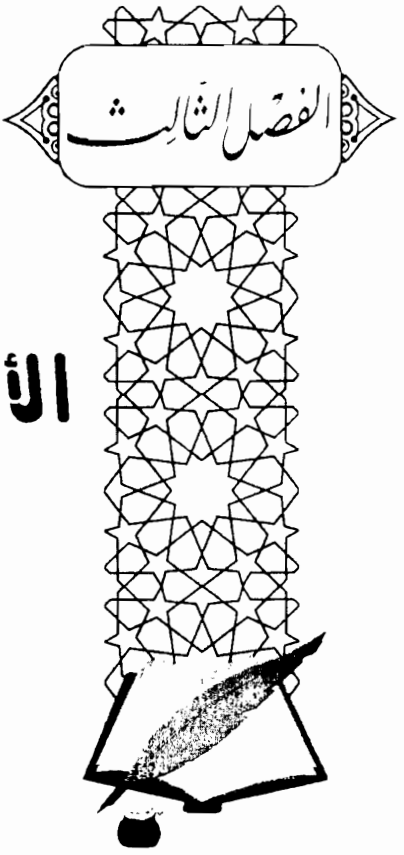

الأماكن التي ارتبطت بحياة الأنبياء

الفصل الثالث

الأماكن التى ارتبطت بحياة الأنبياء

فى هذا الفصل الجديد سوف نعالج سوياً وأيضاً ومن خلال مصاحبتنا لكتاب الله العزيز أماكن أخرى مشهورة جاء ذكرها فى القرآن الكريم. هذه الأماكن ارتبطت بحق، بمسيرة حياة أنبياء الله الكرام منذ آدم عليه السلام وحتى محمد عليه الصلاة والسلام، كما ارتبطت فى الوقت نفسه بالرسالات السماوية التى جاءوا لينشرونها من أجل عبادة رب العالمين ونبذ عبادة ما دونه من الحجر أو البشر أو الشجر.

وربما تكون تلك هى المحاولة الأولى من نوعها التى يخصص فيها مؤلف وضمن كتاب كبير بيان لهذه الأماكن التى ارتبطت بهؤلاء الأنبياء وأهميتهما وما طرأ عليها من تغيرات وما إثير بشأنها فى كتاب الله العزيز.

ولا شك أنها جميعا أماكن طاهرة مباركة، شهدت أحداثاً متنوعة سواء فى حياة هذا النبى أو ذاك أو حتى فى دعوته إلى الله.

وكما نعرف جميعاً فإن الله تعالى لم يذكر لنا هذه الأماكن التى سوف نسوقها من خلال أوراق هذا الفصل من دون حكمة أو عبرة ، بل ذكرها الله تعالى لمعانٍ قد نعلم بعضها ونجهل البعض الآخر.

وكما هو معروف لدينا جميعاً.. فإن المكان يلعب دوراً مهماً فى حياة كل منا فما بالنا بحياة هؤلاء الأنبياء. إذن من المؤكد أن هذه الأماكن قد أضافت الشىء الكثير إليهم فى حياتهم كما ساهمت من ناحية أخرى فيما جاءوا به من رسالات سماوية لأجل أن يبلغوها لأهل هذه الأماكن.

ليس هذا فقط، بل إن هناك من الأماكن التى لفظت بعض هؤلاء الأنبياء مما اضطروا معه للهجرة منها،واختاروا رغمًا عنهم أماكن أخرى كى يقيموا بها إلى حين.

وما وقع لنبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام مع البلد الأمين والذى ولد فيه وعاش به طرفاً كبيراً من حياته ووسط أهله وعشيرته لخير دليل على ذلك .. فقد اضطر هذا النبى الكريم أن يترك مكة المكرمة التى شهدت إقامته على مدى أربعين عاماً وحتى عندما عاد إليها فاتحاً اتخذ من دونها مكاناً آخر أقام به .. إذ استمر عليه الصلاة والسلام مقيماً فى المدينة المنورة إلى أن توفاه الله.

وهناك بخلاف ذلك العشرات من القصص التى ارتبطت بهجرة بعض الأنبياء وتركهم ديارهم وقراهم من أجل الدعوة إلى الله والفرار بدين الله خوفًا من إيذاء الكافرين.

* * *

من ذلك نعرف أن الأماكن فى حياة الأنبياء لم تقتصر أهميتها على تلك التى كانوا يقيمون بها بعد ولادتهم، بل شملت كذلك أماكن أخرى شاركت فى أحداث خاصة بتلك الرسالات السماوية التى حملوها إلى بنى البشر. ومن ذلك على سبيل المثال تلك القرية التى كان يعمل أهلها الخبائث والتى هاجر إليها لوط عليه السلام والمعروفة تاريخياً باسم «سادوم وعمورية».. ثم ذلك الجب الذى استضاف نبى الله يوسف عليه السلام وكان بداية خير له إذ ساهم هذا الجب وبطريقة غير مباشرة وفى إحدى أطوار حياته فى توليه عرش مصر كحاكم عدل.. ثم الطور الأيمن فى أرض سيناء.. والذى شهد كذلك تجلى رب العالمين على نبيه موسى عليه السلام.. وجبل الجودى الذى شهد هو الآخر مهبط سفينة نوح، والتنور الذى كان علامة انطلاق هذه السفينة.

وهناك بالإضافة لما ذكرناه من أماكن مشهورة: السجن والعرش واليم والصرح والوادى المقدس طوى ومجمع البحرين ووادى النمل والمغتسل والربوة ذات القرار المعين .. والغار.. وكلها أماكن مهمة جاء ذكرها فى كتاب الله، وبالتالى سوف نتناولها جغرافياً وتاريخياً ودينياً أيضاً.. وسيكون منهج المعالجة فى هذا الفصل قائم

على السرد التاريخى المرتبط بالفترة التى ظهر بها كل نبى ورسول، وذلك من أجل تحقيق الفائدة المرجوة.

** التنور علامة انطلاق السفينة:

عندما نتذكر قصة نوح عليه السلام أو حتى نقرأ بعض تفاصيلها فى كتاب الله وفى كل كتب التفسير يطفوا إلى سطح أحداثها مكانين على جانب كبير من الأهمية وقد ذكرهما القرآن الكريم فى هذه القصة وهما: التنور والجودى.

الأول ارتبط بقوة بالموعد الذى حدده ربنا تعالى لأجل انطلاق السفينة التى امتلأت بالمؤمنين من أتباع نوح عليه السلام، و ذلك بعد هطول الأمطار وإغراق الأرض بالماء.. وكما هو معروف، فقد جاء ذكر هذا التنور فى سورتين هما سورة هود الآية (٤٠) وفى قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا إحمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾. وفى سورة المؤمنون الآية (٢٧).

وعلى الفور وحين نتحدث عن التنور، لا بد لنا و لغيرنا أن يتذكر أيضاً ذلك الطوفان الذى أغرق الأرض ومن عليها، وقد جعل الله تعالى لنبيه نوح ذلك التنور عندما يفور ماؤه علامة مميزة من أجل الاستعداد للإبحار بسفينته مع المؤمنين. ولقد اختلف المؤرخون فى تحديد ماهية هذا التنور ومكانه أيضاً. فقال بعضهم إنه كان موجوداً فى منزل نوح عليه السلام نفسه [1] كما قالوا أن فوران ماء التنور المغلى ..كان هو علامة تحرك هذه السفينة.

والتنور وفق ما جاء فى معجم التفسير اللغوى لكلمات القرآن لصاحبه د. حسن عز الدين الجمل: أن من معانيه مفجر المياه.. وذلك حين تخرج الماء من باطن الأرض. كعلامة على قرب حدوث الطوفان وتحرك السفينة فى اتجاة الأمان بعيداً عن الكافرين من قوم نوح عليه السلام.. ليس ذلك فقط بل تحدث عدد من العلماء ومن المفسرين أيضًا عن ماهية هذا التنور وفورانه ومن ذلك ما أشار إليه العلامة

(١) قصص الأنبياء والتاريخ - د. رشدى البدراوى.ج ١ .

النيسابورى فى تفسيره عندما قال: لقد اختلف العلماء فى قوله تعالى: ﴿وفار التنور..﴾ حيث قال على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه يعنى طلوع الفجر ونور الصبح، وقال ابن عبّاس: إنبجس الماء من وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً، وقال قتادة: أن التنور أشرف موضع على وجه الأرض وأعلى مكانا فيها، وقال الحسن: أراد الله بالتنور الذى يخبز فيه وكان تنوراً من الحجارة، وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح فقيل له إذا رأيت الماء يفور فى التنور فاركب أنت وأصحابك، فنبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته.

وكذلك اختلفوا فى موضعه فقال مجاهد: كان ذلك فى ناحية الكوفة وروى السدى عن الشعبى: أنه كان يحلف بالله ما فار التنور إلا فى ناحية الكوفة، وكان التنور عن يمين الداخل مما يلى باب كندة، وقال مقاتل: ذلك تنور آدم وإنما كان فى الشام فى موضع يقال له عين ورد، أما ابن عبّاس فقال: كان التنور بالهند والفوران هو الغليان، فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمره الله تعالى. (١)

** الجودى.. حين رست سفينة نوح:

وما زلنا في رحاب قصة حياة نوح عليه السلام والأماكن التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم والخاصة برسالته ودعوته إلى الله تعالى.. حيث الجودى . ذلك الجبل الذى رست فوقه هذه السفينة بعدما أغرق الله تعالى الكافرين من قوم نوح وكان منهم بطبيعة الحال ابنه الذى لم يتبع تعاليم والده وفضل أن يتبع الكافرين من قومه.

وهناك العشرات من كتب المؤرخين التى تحدثت بالتفصيل عن جبل الجودى الذى رست فوقه سفينة نوح عليه السلام، ومن هذه الكتب المشهورة كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى.. والذى تحدث فيه عن موقع هذا الجبل ومكانه، مما ذكره فى هذا السياق قوله: إن الجودى هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر فى الجانب الشرقى من دجلة من أعمال الموصل وعليه استوت سفينة نوح عليه السلام عندما نضب الماء.

(١) قصص الأنبياء - المسمى عرائس المجالس - للثعالب.

أما الإمام الطبرى فقد تحدث هو الآخر عن هذا الجبل ضمن حديثه عن قصص الأنبياء. وتناول فيما ذكره تفاصيل كثيرة عن طوفان نوح عليه السلام، فقال : إن الماء ارتفع على أطول جبل فى الأرض بمقام خمسة عشر ذراعاً عندئذ سارت السفينة براكبها ومعهم نوح عليه السلام، وطافت بهم الأرض كلها فى ستة أشهر لا تستقر على شىء حتى أتت الحرم فلم تدخله، ودارت حول الحرم أسبوعاً، ورُفع البيت الذى بناه آدم عليه السلام خوفاً من الغرق. عندئذ أخذت فى الذهاب حتى انتهت إلى الجودى، وهو جبل فى أرض الموصل. فاستوت فوقه بعد ستة أشهر وقيل بعد سبعة أشهر.

كما تناول هذا الجبل بالحديث .. عدد آخر من المؤرخين ومن علماء الجغرافيا.. ومما ذكروه فى هذا السياق قولهم بأن جبل الجودى معروف باسم جبل أراراط وقمته ترتفع عن سطح البحر بـ٦ ألاف قدم، وفى أقوال أخرى تبلغ قمته ما بين ١٣ أو ١٤ ألف قدم.

والمثير للدهشة أن بعض الأثريين قد استهوتهم سفينة نوح عليه السلام فأخذوا ينقبون عنها فوق قمة جبل أراراط، حيث عثروا على بقايا سفينة كبيرة ومتحجرة داخل هذا الجبل، وتم الإعلان عن هذا الكشف فى عام ١٩١٤، كما ذكرت بعض معلومات دوائر المعارف أن كلمة أراراط إنما هى فى الأصل لفظ عبرى ومأخوذ من الأصل الأكادى «أوراطو».

كما أطلق هذا الاسم على بلاد جبلية تقع شرق أشور، وفى مصدر آخر من مصادر المعلومات ذكر أن كلمة أراراط تطلق على هضبة جبلية فى غرب آسيا، تنحدر منها وفى اتجاهات مختلفة أنهار عدة.

أما فى مركز هذه الهضبة الجبلية توجد بحيرة قان التى تشبة فى تكوينها الچيولوجى البحر الميت حيث لا مخرج لها. [١]

(١) جبال الأنبياء - كتاب للمؤلف.

وتوجد دلائل جغرافية وچيولوجية تؤكد أن الإقليم الذى يقع فيه هذا الجبل كان فى الماضى أغزر مطراً مما هو عليه الآن، ولهذا كان أكثر ملاءمة لحاجات الإنسان الأول، هذا المكان جاء ذكره فى القرآن الكريم فى سورة هود الآية (٤٤) وفى قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ .

ويؤكد علماء الجغرافيا أيضًا أن البعثات التنقيبية الخاصة بالآثار قد عاودت زيارة هذا الجبل مرة أخرى فى عام ١٩٥٥ برئاسة المهندس الفرنسى «فرناندونافرا» والذى عثر على بقايا أخشاب أخرى، وفى عام ١٩٦٩ تم العثور على قطع خشبية جديدة مما أكد لدى هؤلاء العلماء رسو سفينة نوح فوق هذا الجبل من قبل انحسار الطوفان.

ويؤكد الدكتور رشدى البدراوى على ما ذهب إليه هؤلاء العلماء من أن السفينة قد رست على الجودى وهو أحد جبال أراراط فى أقصى شمال العراق، وأراراط هو سلسلة جبال فى أرمنيا أو هى أرمينيا ذاتها.

** فج عميق .. ودعوة إبراهيم عليه السلام:

ونعود من جديد للحديث عن الحج وما ارتبط به من أماكن مشهورة فى القرآن الكريم.. ومن بين هذه الأماكن الفج العميق .. الذى ارتبط بدعوة نبى الله إبراهيم عليه السلام. حين أمره ربه بأن يؤذن فى الناس بالحج بعدما رفع القواعد من البيت الحرام هو وابنه إسماعيل عليهما السلام.

ويبدو ذلك واضحاً فى قول الله تعالى فى سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦)وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الآيتين (٢٦و٢٧).

وفى تفسير ابن كثير لهذه الآية قال: وناد يا إبراهيم فى الناس داعياً إياهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه.. فُذكر أنه قال عليه السلام : يا رب وكيف أبلغ الناس وصوتى لا يصل إليهم، فقيل له: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا: وقال : أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا

فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأجابه كل شيء سمعه" «لبيك اللهم لبيك» (١).

ويقول الدكتور محمد سيد طنطاوى إن الفج فى الأصل: الفجوة بين جبلين، ويستعمل فى الطريق المتسع، والمراد فى هذه الآية مطلق الطريق وجمعه فجاج، ويؤكد هذا التفسير اللغوى الذى ذهب إليه الدكتور محمد سيد طنطاوى ما ذكره الدكتور نبيل عبد السلام هارون فى معجم الوجيز لألفاظ القرآن الكريم حيث قال: فجُج أو فج: الطريق الواسع البعيد وجمعه فجاج، كما أكد أيضاً هذا التفسير معجم ألفاظ القرآن الكريم فى جزئه الثانى والذى جاء به أن الفج هو الطريق الواسع البعيد وجمعها فجاجاً أى الطرق الواسعة البعيدة وفقًا لما جاء فى سورة الأنبياء الآية (٣١) وفى قوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون﴾.

وعندما ننظر بعين الحداثة فى تفسير كلمة فجاجاً أو فج عميق. لابد وأن يصل إلى أذهاننا حتى بدون تعب.. أن الله تعالى يشير من خلال هذا اللفظ إلى البلاد البعيدة وفى كل القارات، وقد تحقق ذلك فى أيامنا هذه، خاصة فى ظل هذا التطور المذهل فى وسائل المواصلات جواً وبحراً وبرًا، حيث كانت هذه الوسائل من قبل قاصرة فقط على الطرق البرية، وبعض طرق البحر غير الآمنة.

فقد رأينا من يحج إلى بيت الله الحرام ويأتى من كل بقاع الدنيا والتى لم يكن يتصور أجدادنا مدى بعدها أو استحالة تركها من أجل هذه الرحلة المباركة.

من هنا نؤكد أن كلمة الفج العميق يقصد بها فى أيامنا هذه تلك البلاد البعيدة سواء من قارات الأرض الشمالية أو الجنوبية، وحتى القارة البيضاء أو الثلجية التى يأتى منها أيضاً عباد الله لزيارة هذا البيت وإتمام رحلة الحج والتى قد تستغرق أياماً طويلة، بل وأسابيع فى السفر بالطيران أو البحر، مع استحالة تحقيق هذه الرغبة براً. وصدق الله العظيم حين ذكر لنا على لسان نبيه الكريم إبراهيم عليه السلام.. ﴿يأتوك من كل فج عميق﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير.

** الجبُ.. ويوسف عليه السلام:

وننتقل من جديد إلى قصة أخرى من قصص أنبياء الله والتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم مصحوبة ببعض الأماكن المشهورة فى حياة نبى الله يوسف عليه السلام، ومن هذه الأماكن «الجبُ».. والذى نعتبره نقطة فارقة فى حياة هذا النبى الكريم وفى قصة حياته ورسالته أيضاً، إذ جعل الله هذا الجب بداية طيبة رغم صعوبتها على هذا الصبى وعلى أبيه يعقوب عليهما السلام.

أقول لقد جُعل هذا الجب بداية لتفاصيل كثيرة فى حياة نبى الله يوسف وحياة إخوته وأبيه. ذلك لأن هذا الجب ذاته كان سبباً فى وصوله إلى مصر. وتوليه عرشها. وذلك من بعد عدة سنوات قضاها فى غربة ولوعة وشوق لأبيه. هذه السنوات الطويلة اختلف فى تحديدها المؤرخون والمفسرون.

ومما لا بد من الإشارة إليه فى سياق الحديث عن ذلك الجب كمكان مشهور فى القرآن الكريم هو بعض ملامح قصة يوسف عليه السلام وهو لا يزال يعيش فى كنف أبيه مع إخوته وذلك من قبل حدوث ذلك الفراق القصرى والذى أودى به إلى ذلك الجب.

والجبُ كما جاء فى اللغة معناه البئر التى لم تبن بالحجارة ونحوها. (١)

ومن أهم ما أشار إليه القرآن الكريم فيما يخص قصة هذا النبى الكريم أن أباه هو يعقوب عليه السلام والذى عرف فيما بعد باسم إسرائيل.. وهو أحد أحفاد إبراهيم عليه السلام.. هذا النبى الكريم أنجب عشرة أولاد وابنة واحدة من عدة زوجات.. كان من بينهم يوسف عليه السلام الذى هو بطل هذه القصة.

ولقد أعمى الحقد قلوب إخوته فقرروا أن يتخلصوا من أخيهم الصغير الذى استشرف ما سوف يحدث له من جانب إخوته وذلك فى حلمه المشهور. هذا الحقد جعلهم يقذفون به فى ذلك الجبُ العميق.

ورغم صعوبة هذا الموقف على كل من يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام إلا أن

(١) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن - مصدر سابق.

هذا الجبُ ذاته كان فاتحة خير على هذا النبى وعلى أهله الذين جاء بهم جميعاً إلى مصر ليقيموا بها بعدما تولى يوسف عليه السلام وفق مشيئة رب العالمين عرش مصر.

والجبُ الذى نزل فيه هذا النبى الكريم قد شغل العديد من المؤرخين وكتاب السيرة النبوية، ومن هؤلاء الدكتور محمد سيد طنطاوى الذى قال: إنه حفرة عميقة فى الأرض، وغيابة الجب: معناه أنهم ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يراه أحد.

ولقد ذكر لنا القرآن الكريم هذا الجب فى آيتين فى سورة يوسف هما: الآية العاشرة والخامسة عشرة.. وكان من بين المؤرخين الذين توسعوا فى حديثهم عنه وعن موضعه وما ارتبط به من حكايات هو الإمام النيسابورى الذى قال نقلا عن ابن عباس ومقاتل وبحيرا عن كعب الأحبار عن سعيد بن أبى عروبة قالوا: أرسل يعقوب يوسف مع إخوته فأخرجوه مظهرين له الكرامة، فلما برزوا به إلي البرية أظهروا له العداوة،وضربوه.

ولما هموا بقتله قال لهم أخوهم يهوذا: لا تقتلوه. فعندئذ أجمعوا أمرهم على إلقائه فى الجبُ كما أشار بذلك رب العالمين فى القرآن الكريم، وكان هذا الجب فى الأردن بين مدين ومصر وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق فى واد من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وكانت بئراً موحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق، يهلك من يطرح فيه من سعه أسفلها ولا يمكنه الصعود منه.. وكان ماؤه ملحاً.. ويقال كذلك إن هذا الجبُ قد حفره سام بن نوح وسمى جب الأحزان[1].

أما الدكتور رشدى البدراوى فيؤكد فيما وصل إليه أن إخوة يوسف قد اختاروا بئراً على طريق القوافل، حيث لم يقصدوا موته، بل هدفهم إبعاده بإلقائه فى هذه البئر، وهذا كلام فى واقع الأمر مردود عليه لأنهم فى بداية تفكيرهم كانوا قد عقدوا

(١) عرائش المجالس - المصدر السابق.

العـزم على قتله وفق مـا أشار إليـه القرآن الكريم ولولا تدخـل رحمة الله فـى صورة رجاء أخيه يهوذا أو غيره لكانوا قد أقدموا على هذا الفعل المنكر.

** السجن.. بدلاً من المعصية:

ومـا زلنا فى رحاب قـصـة يوسف عليـه السلام .. ولكن فى مـرحلة جـديدة من مراحل حياته التى شـهدت أحداثاً كثيرة.. ذكر لنا القـرآن الكريم منها بعض الأماكن التى شاركت فى هذه الأحداث.

ومن هذه الأمـاكن .. السـجن .. حـيث ذكر الله تعـالى لنا فى كـتـابه العـزيز عن السجن حديثاً طيباً فى سورة يوسف الآيات: (٣٣)-(٣٦)-(٣٩)- (٤١)- (٤٢)- (١٠٠) . وقـد تناول هذا الحديث .. السـجن فى الفـترة التى تصـور من كانوا حـول يوسف، هذا النبى الكريم، إمكانية إغرائه من أجل المعصـية.. ونراه هنا يعبر عن ذلك بقوله فى الآية (٣٣) :﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

كـما أوضح لنا القـرآن الكريم أن فـترة السـجن المشار إليـهـا فى حيـاة هذا النبى الكريم كانت هى نفسـها الفترة التى شـهدت بعدها انتقاله إلى عـرش مصر. ومما هو واضح من سياق القـصة التى حكاها لنا القرآن الكريم أن دخول السـجن كان تهديداً من امـرأة العزيز التى صـرحت بأنه إن لم يفـعل يوسف عليه السـلام ما أمـرته به من الاستجابة لرغباتها ليكونن من المسجونين أو من الأذلاء المهانين المتهورين. ولما وصل هذا التهـديد السافـر إلى مسامع يوسف عليـه السلام دعى ربه مـستجـيراً به مفـضلاً دخول ذلك السجن على معصية الله.

ويقول الإمام الأكبـر الدكتور محمد سيـد طنطاوى: أن هذا القرار بسجن يوسف كان يدل على أن امـرأة العزيز كانت مـالكة لقيادة زوجـها صاحب المنصب الكبـير، فهى تقوده حيث تريد، وكما يقود الرجل دابته!!.

والسجن كما نعرف جميعاً هو مكان يقـضى فيه المذنب عقوبة أساسها .. حرمانه من حريتـه، مهما اخـتلفت مدة هذا السجن. وهو وسـيلة قديمة ابتدعهـا الإنسان من أجل الحد من الجرائم ، أو عقاب الخـصوم. ويختلف السجن من مكان إلى آخر ومن

مجتمع إلى آخر سواء فى حجمه أو فى مكانه أو فى الوسائل المستخدمة بداخله للتعذيب أو للترهيب، كما اختلف استخدامه كوسيلة عقابية من زمن إلى آخر.

وهناك من الرواة الذين كانوا ينظرون إلى السجن فى الماضى البعيد على أنه قبر يدفن فيه المذنب أو غير المذنب وهو على قيد الحياة!!.

ويبدو أن يوسف عليه السلام عاصر هذه الفترة التاريخية. فربما مكث فى هذا السجن طوال حياته لولا أن هيأ الله له هذا السجين الذى خرج وأبلغ عنه الحاكم، تفسيراً لرؤياه الخاصة بالسنوات العجاف.

ولقد روى يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله أخى يوسف لولا كلمته ما لبث فى السجن ما لبث»، يعنى قوله اذكرنى عند ربك ثم بكى.

وذكر بعض المؤرخين أن يوسف عليه السلام قضى فى سجنه سبع سنوات وأن هذا السجن كان خارج المدينة على حد قول ابن عبّاس الذى أضاف: أن الفتى الذى أخبر عن يوسف تذكره بعد مرور عدة سنوات عندما طلب من الملك أن يتم إرساله مرة أخرى إليه لمقابلة يوسف وليقص عليه خبر هذه الرؤيا.

وبالفعل عاد هذا الفتى والتقى بيوسف عليه السلام الذى فسر له الحلم، وعندما رجع الفتى إلى سيده أخبره بما كان من أمر تفسير يوسف عليه السلام لرؤياه، وبالتالى طلب الإفراج عنه.. ولكن يوسف عليه السلام آثر الانتظار فى السجن حتى تثبت براءته من جانب امرأة العزيز التى اعترفت بذنبها.

وقد عبر لنا رسولنا الكريم عن هذا الموقف من جانب يوسف وكرمه وصبره، إذ قال رسول الله: «لقد عجبت من أخى يوسف وكرمه وصبره، والله تعالى يغفر له حين سُئل عن البقرات السمان والعجاف، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى. ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولم أتبع العذر والله إنه كان حليماً ذا أناة». (١).

(١) عرائش المجالس .. مصدر سابق

** العرش .. وختام لقصة نبى كريم:

رغم أن كلمة العرش قد وردت فى قصة نبى الله يوسف إلا أنها كذلك قد ذكرت فى غيرها من قصص الأنبياء كمكان مشهور ارتبط بهؤلاء الأنبياء الذين عاصروا ملوكاً كانوا يجلسون على عروش بلادهم، وقد أرادوا لهم الهداية واتباع سبيل الإيمان بالله الواحد الأحد.. كذلك ذكرت كلمة العرش للدلالة على مكان عظيم فى السموات السبع.. وهو خاص برب العرش العظيم رب السموات والأرض وما بينهما.

والعرش فى اللغة هو سرير الملك، وقد جاء ذكر هذا المكان بهذا المعنى فى كتاب الله فى سورتى النمل الآية (٢٣) والتى حدثتنا عن تلك المرأة التى عاصرها سليمان عليه السلام والمعروفة تاريخياً بالملكة بلقيس ملكة سبأ وذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ثم فى سورة يوسف الآية (١٠٠) وفى قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وبخلاف هذين المكانين المرتبطين بالأرض التى نعيش فوقها .. جاءت كلمة العرش فى كتاب الله معبرة عن ذات الله العليا ... وغير معروف حقيقته بالنسبة لنا كبشر، وذلك فى سور الأعراف الآية (٥٤)، وفى الآية (١٢٩) من سورة التوبة باللفظ والآية (٣) فى سورة يونس والآية (٢) فى سورة الرعد، و(٤٢) فى سورة الإسراء و(٥) فى سورة طه، و(٢٢) فى سورة الأنبياء و(٨٦) و(١١٦) فى سورة المؤمنون و(٥٩) فى الفرقان و(٢٦) فى النمل و(٤) فى السجدة و(٧٥) فى الزمر والأيتين (٧)و(١٥) فى سورة غافر و(٨٢) فى الزخرف و(٤) فى سورة الحديد و(٢٠) فى سورة التكوير وأخيراً فى الآية (١٥) فى سورة البروج.

ويتضح من البيان السابق لكلمة العرش الدالة على مكان مشهور فى كتاب الله تعالى أنها ذكرت معبرة عن سرير الملك مرتين فى سورة النمل ويوسف، أما بالنسبة لمعناها الذى لا يعلم حقيقته إلا الله فقد ذكرت ١٩ مرة فى ١٨ سورة قرآنية.[١]

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ج (٢).

وفى تفسير الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى لآية العرش فى سورة يوسف قال : لقد استجاب إخوة يوسف لقوله عندما أتوا بأهله جميعاً إلى مصر. من بلاد الشلام التى كانوا يعيشون بها ومعهم أبوهم يعقوب عليه السلام، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف ضم إليه أبويه وعانقهما عناقاً حاراً.

وقد ذكر المفسرون هنا كلاماً يدل على أن يوسف عليه السلام وحاشيته ووجهاء مصر عندما بلغهم قدوم يعقوب بإسرته إلى مصر خرجوا جميعاً لاستقبالهم. وكان عدد أفراد هذه الأسرة ما بين الثمانين والتسعين. عندئذ أجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى كان يجلس عليه تكريماً لهما وإعلاء لشأنهما، وقد خروا له ساجدين من أجل يوسف وكان ذلك جائزاً فى شريعتهم آنذاك.

ولنا رأى قد يخالف ما ذهب إليه المفسرون فيما يخص العرش. حيث نرى أن المقصود به ليس السرير الذى يجلس عليه الحاكم.. بل المقصود ذلك المكان الذى يجلس فيه الحاكم وسط قصره حيث يعلوه كرسى كبير ومحاط بحرس شديد.. ولا يستطيع أحد من الرعايا أو العاملين بالقصر أن يدخلوه إلا بعد أستئذان من مخصوص يبلغ الحاكم بالقادم والموعد المضروب له سلفاً. وهذا ما نراه بالفعل فى حياة الملوك حالياً.. وما كنا نسمع عنه فى حياة الملوك زمان.

ويقال فى هذا السياق إن يعقوب عليه السلام قد مكث فى مصر بعد وصوله إليها وأهله ٢٤ عاماً. حيث وافته المنية.. وكتب فى وصيته لابنه يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة كى يدفن عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم عليهما السلام.

** القرية .. التى كانت تعمل الخبائث:

على كثرة ما جاء فى كتاب الله عن كلمة القرية أو القرى كمكان مشهور فى هذا الكتاب العظيم.. إلا أننا لاحظنا أن معظمها يدل دلالة عامة على أية قرية وفى أى مكان.. إلا ما جاء بشأن قرية نبى الله لوط عليه السلام.. تلك القرية التى كانت تعمل المنكر فيما بين أهلها!!.

ففى سورة الأنبياء وفى الآية (٧٤) جاء ذكر هذه القرية باللفظ والمعنى السابق ذكره وكذلك فى سورة الفرقان فى الآية (٤٠) وفى قوله تعالى: ﴿ولقد أتوا على

الْقَـرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّـوْءِ﴾ . وفى سـورة العنـكبـوت الآيتين (٣١) و(٣٤) .. والمقصود فى كلمة القرية فى الآيات فى كل من سورة الأنبياء والفرقان والعنكبوت، هى تلك القرية التى كان يقيم بها لوط عليـه السلام والتى دمرها رب العالمين إزاء ما كان يـرتكبه أهلهـا من فعل المنكرات، وهـى تعرف فى التـاريخ الانسانى باسم قـرية سـدوم وعمـورية، وقـد أسكنهـا رب العالمين تحـت ميـاه البـحر الميت وفـق ما قـاله عشرات من المفسرين بعدما دمرها جبريل عليه السلام وقلبها رأساً على عقب إزاء ما كانوا يرتكبونه من معاصٍ.

ويقول المفسرون عما وقع لأهل هذه القرية ومصيرهم : أنهم بعدما علموا بوجود ضيـوف لوط عليـه السلام من الملائكة وهم لا يعـرفون أصلهم أو مـاهية جنسـهم ، جاءوا إليـه مسـرعين يسوق بعـضهم بعضـاً إلى بيتـه من شدة الفرح، ومـن قبل هذا المجىء كان هؤلاء القـوم الفاسقون يرتكبـون السيئات الكثـيرة التى كان من أقبـحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء.

ويؤكد الدكـتور مـحمد سـيد طنطاوى أن القـرآن الكريم قد طوى ذكـر الغرض الذى جاءوا من أجله لإشعارنا بتلك الفاحشة التى صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة، فلا يسعون إلا من أجل قضائها.

وأضاف أنه وبعـد أن بلغ الضيق بلوط عليـه السلام ما بلغ كـشف له الملائكة عن حقيقـتهم وبشروه بما أدخل الطمأنينة على قلبه، مؤكـدين له أن الله تعالى قد أرسلهم كى يخـبروه بهـلاك أهل هذه القرية، وطلبـوا منه أن يتـركهـا فى الليل هو وأهله إلا امرأته، فإنه سوف يصيبها ما سوف يصيبهم عندما يأتى الصباح.

وصدق هؤلاء الملائكة فـيما أبلغـوه لهذا النبى الكريم، حـيث اقتلع جبـريل عليه السـلام تلك القرية ومـا حولهـا ثم قلبـها.. وفى رواية أخـرى أن هذا الملاك الكريم أدخل جناحيه تحت هذه القـرية فرفعها ثم قلبهـا..، ليس ذلك فقط، بل لقد أرسل الله عليهم حجارة من طين مـتحجر نزلت عليهم كالمطر، وقيل إنها كـانت بعلامة خاصة بأسماء من سوف تنزل عليهم لقتلهم!

وهناك شبه إجـماع بين المفسرين وبين المؤرخين على أن القرية التى كـان يقيم بها

لوط عليه السلام وشملها وأهلها هذا العذاب هى قرية سدوم التى كانت تقع على البحر الميت فى وادى نهر الأردن. وهناك آلاف المحاولات من جانب رجال الآثار والمستكشفين فى العصر الحديث للوصول إلى هذه القرية التى تقبع وأهلها أسفل هذا البحر .

وتسمى قرى أو قرية قوم لوط بالمؤتفكات وهى جمع مؤتفكة. ومعناها الانقلاب بجعل الشئ أعلاه سافله، وهذا ما وقع بالفعل لتلك القرى التى كانت ترتكب الفحشاء غير المسبوقة على زمانهم!.

** اليم: فى ماء النيل وماء البحر:

إذا ما جاء ذكر لفظ اليم كمكان مشهور فى كتاب الله كان لا بد لنا وأن نتذكر سوياً قصة موسى عليه السلام. لأن هذا المكان قد ارتبط ببداية حياته حين خافت عليه أمه من أن يقتله الفرعون، كما ارتبط كذلك بنهاية حياة ذلك الفرعون الذى كان مصيره وجنوده الغرق فى ذلك اليم.

ولقد ذكر لنا القرآن الكريم كلمة اليم فى سورة الأعراف الآية (١٣٦)، وفى سورة طه الآيات (٣٩)-(٧٨)-(٩٧) وفى سورة القصص الآيتين (٧) - (٤٠) ثم فى سورة الذاريات الآية(٤٠) .

وكما سبق وذكرنا فإننا حين نقرأ كل هذه الآيات التى جاءت فى هذه السور الكريمة الأربع.. سوف نكتشف أن اليم كمكان مشهور لم يأت ذكره إلا فى قصة موسى عليه السلام من بدايتها وحتى نهايتها ويتجلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾.

وفى قوله تعالى: ﴿فَانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم﴾. وكان بين هذه البداية وتلك النهاية أحداث كثيرة وعظيمة شهدتها قصة موسى عليه السلام فى صراعه مع فرعون من أجل هدايته إلى رب العالمين وتركه لعبادة ذاته وعبادة قومه له من دون الله!.

واليم كما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم معناه البحر ملحاً كان ماؤه أو عذباً، ذلك لأننا بالفعل نجد هذين المعنيين فى كتاب الله وفى قصة موسى عليه

السلام. فقد أخبرنا الله تعالى بأنه أوحى إلى أم موسى أن تلقيه فى اليم حيث كان الماء العذب يجرى من أمام قصر فرعون.. إذ قدر الله تعالى أن يتوقف التابوت الذى كان يسبح فى ذلك اليم العذب أمام إحدى جوارى زوجته فأتت به إلى قصرها، ولقد ألقى الله تعالى محبته كطفل فى قلبها فطلبت من زوجها ذلك الفرعون العنيد. والذى كان يقتل أبناء قوم موسى أن يبقيه داخل القصر.

ويقال فى هذا الشأن أن فرعون موسى لم يكن آنذاك ينجب فاختارت زوجته أن تتخذه ولداً لها، وهنا تتدخل مشيئة الخالق العظيم الذى يدبر كل شىء تدبيراً حكيماً.

أما المعنى الخاص بكون هذا اليم به ماء مالح، فقد ارتبط كذلك بنهاية قصة فرعون موسى حيث أغرقه الله تعالى وجنوده ووزيره هامان فى هذا اليم المالح وهم فى طريقهم إلى خارج مصر هرباً من مطاردته وجنوده وكبير كهنته ولحكمة لا يعلمها إلا الله، فقد طفت جثة الفرعون ولم تغرق مثلما غرق كل من كانوا معه.

** الطور .. عندما كلم الله موسى:

وفى قصة موسى عليه السلام أيضاً أماكن مشهورة أخرى جاء ذكرها فى القرآن الكريم وهى تستوجب منا التوقف عندها لتدبرها والتعرف على معانيها ومغزاها. ومن بين هذه الأماكن الطور أو الطور الأيمن. ومن عظيم رحمة الله وتقديره لهذه البقعة المباركة فوق أرض مصر.. أن ذكرها العديد من المرات فى كتابه العزيز. فالطور كما هو معروف هو الجبل أو اسم لجبل. وجاء ذكره فى كتاب الله فى سورة البقرة الآية (٦٣) وباللفظ فى (٩٣).. وفى سورة النساء الآية (١٥٤) ومريم الآية (٥٢) وطه (٨٠) والقصص الآيتين (٢٩ و٤٦) والطور الآية (١) .

كما ذكر لنا ربنا سبحانه وتعالى الطور كمكان مشهور فى هذا الكتاب العزيز مقروناً بصحراء سيناء مثلما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ الآية (٢٠) فى سورة المؤمنون. ومعناه فى هذه الآية وكما يقول معجم ألفاظ القرآن الكريم: جبل قرب أيله.

ثم جاء نفس اللفظ مقروناً بلفظ أخر يشير إلى لفظ سيناء مع اختلاف الحروف

وذلك فى قوله تعالى: ﴿والتين والزيتون (١) وطور سينين﴾ الآية (٢) من سورة التين، وطور سنين هنا معناه طور سيناء.[١]

وما نود أن نشير إليه فى سياق الحديث عن هذا المكان المشهور هو أن الطور وطور سيناء وطور سنين إنما يدل على مكان واحد. قد ارتبط بالمرحلة الثانية من مراحل حياة موسى عليه السلام الإيمانية. هذه المرحلة التى بدأت من بعد هروبه الأول من مصر على إثر ما حدث منه تجاه هذا المصرى الذى قتله.

ولقد شهدت هذه المرحلة تكليفه من لدن رب العالمين بالدعوة إلى الله وهداية فرعون مصر، هذه الدعوة التى تلقاها موسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن من البقعة المقدسة والتى تجلى فيها رب العالمين بنوره الذى سطع على الكون كله فى هذه اللحظة التى كلم فيها موسى عليه السلام.

وهناك العديد من المؤرخين وكتاب السير الدينية الذين توسعوا فى الحديث عن الطور ومكانه ودوره فى حياة موسى عليه السلام ومسيرة رسالته السماوية، كما تناول الحديث بعينه بعض مؤرخى الكتاب المقدس، ونرى الدكتور رشدى البدراوى يشير إلى كل ذلك فى قوله: إن التوراة تذكر أن هناك جبلين كلم الله موسى عليه السلام عليهما أحدهما جبل حوريب بجوار خليج العقبة والآخر جبل موسى المعروف فى جنوب سيناء.

بل إن معظم الكتب الدينية قد أجمعت على أن جبل حوريب هو نفسه جبل سيناء، ويؤكد الدكتور البدراوى، ونحن معه بطبيعة الحال بأن الحق هو ما قرره القرآن الكريم خاصة فيما يتعلق بالطور.. إذ إن موسى عليه السلام بعدما أمضى عشر سنوات فى أرض مدين استأذن حماه فى العودة إلى مصر وأخذ أهله معه وسار فى طريق العودة حيث انحرف جنوباً فوصل إلى جبل سيناء.

وفى ظل هذا الجبل المبارك حدث له ما حدث وفق ما حكاه القرآن الكريم عن

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم - جزء ٢.

كلام الله لهذا النبى الصالح وتكليفه برسالته السماوية الأولى. والمعروفة بالديانة اليهودية.

ويؤكد الدكتور البدراوى أن موسى عليه السلام بدأت رحلة عودته إلى مصر مرة أخرى بعد أن بدأ فصل الشتاء. والدليل على ذلك قوله لأهله وفق ما جاء فى القرآن الكريم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الآية (٧) من سورة النمل.

لقد ساقه الله إلى هذا المكان فى وسط سيناء بعيداً عن الطريق الذى تسلكه القوافل جيئة وذهاباً بإبلها وروثها، فوصل إلى المنطقة المسماة «الطور» وفيها الجبل الذى سُمى فيما بعد «جبل موسى». فلما رأى النار طلب من أهله أن يبقوا مكانهم، أما هو فسار حتى اقترب من النار فرأى عجبا على حد قول ابن عبّاس: إنه رأى شجرة أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوء ما يكون، فوقف متعجباً من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة، فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها. (١).

ويؤكد نعوم شقير فى كتابه «تاريخ سيناء القديم والحديث» أن جبل طور سيناء الذى إليه تنسب الجزيرة كلها هو نفسه الجبل الذى جاءه موسى عليه السلام وناداه الله من جانبه الأيمن كى يعود إلى مصر لهداية آل فرعون، وهو جبل يقع على نحو ٦٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من مدينة الطور، بل ويؤكد فى السياق نفسه أنه نفس الجبل الذى نزل عنده النبى موسى عليه السلام بعد خروجه بالإسرائيليين من مصر وتجلى الله له فأنزل عليه الشريعة. إضافة إلى ذلك فهو جبل خال من أى أنواع الخضرة وصعب ارتياده.

** الوادى المقدس طوى:

لا بد وأن نشير فى البداية إلى أن الله تعالى قد بارك كل أرض سيناء وجعل منها أول بقعة فوق سطح الأرض تشهد تجلى رب العالمين لأحد عباده الصالحين. وقد

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم - جزء ٢ .

سبق ومر علينا كيف استقبل موسى عليه السلام هذا التجلى الذى أسفر عن تكليفه بدعوة فرعون إلى عبادة الله الواحد الأحد.

ويبدو من سياق حديث القرآن الكريم أن جبل الطور أو طور سيناء أو جبل موسى هو جزء أصيل من الوادى المقدس طوى الذى شهد كل أحداث تكليف موسى بهذه الرسالة السماوية فى مراحلها المتعددة سواء من قبل وصوله إلى مصر مرة ثانية أو من بعد رجوعه إلى أرض سيناء مع قومه من بنى إسرائيل.

والمسألة هنا فى تصورنا قد تعدت فكرة الجبل المرتبط بهذه الرسالة إلى واد كبير وعظيم وأرض مباركة مثل سيناء.. تلك التى شهدت تفاصيل لقاءات موسى عليه السلام وقومه مع رب العالمين..وتلقيه الألواح وأحداث أخيه وقومه والسامرى الذى صنع لهم عجلاً مما خرجوا به من أموال وذهب وحلى كى يعبدونه من دون الله.

أما فيما يخص الحديث عن الوادى المقدس طوى ومدى قدسيته بالنسبة لموسى عليه السلام وبالنسبة لنا أيضاً.. فإن الله تعالى قد أمر نبيه بأن يخلع نعليه حيث دخل إلى هذا الوادى المقدس، ويتجلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ الآية (١٢) من سورة طه كما جاء نفس اللفظ فى سورة أخرى هى سورة النازعات الآية (١٦).

ولقد تبارى المفسرون فى أسباب خلع موسى نعليه وفق ما أمره به رب العالمين.. ومما ذكروه فى هذا السياق قولهم: بأنها متعلقة بما بعدها وأن هذين النعلين كانا من جلد غير مُذكى فكانت نجسه، وقيل أيضًا لقد أمُر بذلك لتمس قدماه تربة ذلك الوادى المقدس فينال البركة، والأرجح وفق ما ذهب إليه الدكتور رشدى البدراوى أنها متعلقة بما قبلها أى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ للخشوع والتواضع عند مناجاة رب العالمين.. وقد أخذ بهذا الرأى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ويضيف المفسرون: أن موسى عليه السلام وفى هذا الوادى المقدس قد أعطاه رب العالمين بعض الآيات التى سوف تعينه فى رسالته ضد فرعون، ومن هذه الآيات عصاه التى تحولت إلى ثعبان عظيم، ويده التى خرجت بيضاء من غير سوء.. إضافة إلى ما طلبه موسى عليه السلام من ربه بأن يجعل من أخيه هارون وزيراً له ومعيناً،

لأن هارون عليه السلام كان أفصح منه لساناً. مما يعنى أن رسالته هذه إلى فرعون كانت تعتمد فى المقام الأول على الإقناع بالحديث الطيب اللين والذى قد لا يقدر عليه موسى عليه السلام.

ولقد ذكر لنا القرآن الكريم أن الله تعالى قد أمد نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات إلى فرعون وقومه، ويقول الدكتور محمد سيد طنطاوى أن الوادى المقدس اسمه طوى والمقدس هنا معناه المطهر المبارك.

والسؤال الذى يجب أن نجتهد فى البحث عن إجابة له تقول كلماته: وهل الوادى المقدس طوى هو أحد أودية صحراء سيناء،؟ وإذا كان ذلك صحيحاً فإن هذه الأرض الطيبة مكونة أو كانت مكونة جغرافيا من عدة أودية لم يصرح لنا الله تعالى إلا بأحدها والوادى - كما نعرف لا بد وأن تكون فيه كل مقومات الحياة من مياه وزروع.

ولعلنا نركب عجلة الزمن كى نصل من خلالها إلي أيامنا هذه لنتذكر سوياً ما أكده العالم المصرى الدكتور فاروق الباز من أن صحراء سيناء كانت أودية غناء بالخضرة والمحاصيل بدليل أن الأقمار الصناعية أثبتت أن فى أسفل هذه الصحراء أعظم وأكبر خزان ماء جوفى فى العالم.

بل وأكثر من ذلك قال أيضاً.. أن الأقمار الصناعية أثبتت أنه كانت هناك أنهار كثيرة فى هذه الصحراء، وأن هذه الآبار الجوفية الموجودة حالياً هى من نتاج هذه الأنهار، وبالتالى فعلينا أن نواصل البحث فى هذا الوادى وفى غيره من وديان أرض سيناء التى باركها رب العالمين عندما تجلى على أرضها وعلى جبالها أكثر من مرة.

ويبدو أن الرئيس الراحل أنور السادات قد أراد أن يحيى هذا المكان ويعيد إليه روح الزمن الماضى، عندما فكر قبيل وفاته فى تحويل هذا المكان إلى ما أسماه آنذاك بوادى الراحة !، هذا الوادى الذى شهد التقاء أصحاب الديانات الثلاث فوق أرضه موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام[1].

(١) راجع كتابنا: أماكن مشهورة فى حياة محمد ﷺ .

** مجمع البحرين.. والخضر عليه السلام:

الواضح فى كل كتب التفسير، الاهتمام بقصة مجمع البحرين وما ارتبط به من لقاء موسى عليه السلام بذلك العبد الصالح والذى أجمعت عليه كل كتب السيرة وكل ما كتب المؤرخين من أنه هو الخضر عليه السلام، وذلك دون أن يلتفت أحد من هؤلاء كى يحدثنا بالتفصيل عن مجمع البحرين هذا ومكانه وموقعه، ذلك لأن هذا المكان الطاهر هو جزء أصيل من القصة نفسها .

ولقد رأينا أن هذا الأمر مختلفاً بعض الشىء لدى كل من الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر وكذلك الدكتور رشدى البدراوى صاحب كتاب قصص الأنبياء والتاريخ خاصة فى الجزء الرابع والذى صدر تحت عنوان «موسى وهارون عليهما السلام» ومن هو فرعون موسى!.

فقد أشار الدكتور طنطاوى فى بداية حديثه عن هذا المكان أولاً إلى معناه لغوياً.. حيث قال: إن مجمع البحرين هو ذلك المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، ونقل عن الألوسى قوله: والمجمع: الملتقى وهم اسم مكان، والبحران: بحر فارس والروم. كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما .. وملتقاها: مما يلى المشرق، ولعل المراد به مكان يقرب فيه التقاؤهما، وقيل البحران: بحر الأردن وبحر القلزم.

وواضح هنا أن الألوسى قد نقل حديثه هذا عن النيسابورى الذى قال هو الآخر: «حتى بلغ مجمع البحرين يعنى بحر فارس والروم مما يلى الشرق» وقد جاء ذلك ضمن حديث طويل للنيسابورى عن قصة موسى عليه السلام وكيفية لقاؤه بالخضر عليه السلام، وعلامات ذلك اللقاء ونتائجه.

كما ينقل لنا الدكتور طنطاوى رأياً جديداً كتبه الشيخ سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن والذى قال فيه عن مجمع البحرين: إنهما البحر الأبيض والبحر الأحمر، ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر. فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر.

أما الدكتور البدراوى فيشير إلى هذا الخلاف الذى لاحظه بين المفسرين فيما يخص تحديدهم لمكان مجمع البحرين، فيقول : اختلف المفسرون فى تحديد هذا المكان حيث قال الألوسى والطبرى أنهما بحر فارس والروم. أو بمفهومنا الحاضر الخليج الفارسى أو العربى والبحر الأبيض المتوسط.

وقالوا: ملتقاهما مما يلى المشرق، ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما وإلا فهما لا يلتقيان إلا فى البحر المحيط. بينما ذكر أبو حيان أن مجمع البحرين يلى الشام.

وقال محمد بن كعب القرظى: هو عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه من دبور إلى حسبا، وقال أُبى إنه بإفريقية.

وروى عن السدى: البحران هما الكر والرس بأرمنيا وقيل بحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر الأزرق، وللأسف لا يوجد على الخرائط بحر اسمه الأزرق، وقيل هما بحر ملح وبحر عذب وملتقاهما فى الجزيرة الخضراء فى جهة المغرب.

ويرجع الدكتور البدراوى هذا التخبط فى الوصول إلى حقيقة مكان مجمع البحرين بخصوص ما ساقه المؤرخون الأوائل إلى عدم معرفتهم بعلم الخرائط الذى ظهر حديثاً نوعاً ما كما كانت معلوماتهم الجغرافية مشوشة وغير دقيقة.

وبناء على المعلومات المتاحة حالياً فإننا نعرف أن مجمع البحرين هو مكان التقاء خليجى العقبة والسويس، ويؤكد الدكتور البدراوى أن هذا التفرع موجود منذ ملايين السنين ولكن لم تدركه عقول علماء الجغرافيا. وهذا المكان قد جاء ذكره كمكان مشهور فى كتاب الله فى سورة: الكهف (٦٠). أما لفظ البحرين فقد جاء ذكره فى القرآن الكريم فى سور: الفرقان (٥٣) والنمل (٦١) و(١٩) الرحمن.

وما عرفناه من المفسرين الأوائل بخصوص مجمع البحرين وكثرة اختلاف المفسرين حوله إنما كان يؤكد اجتهادهم قدر ما توافر لديهم من معلومات، وبالتالى لا يعد ذلك شططاً فى التفسير، حتى أن بعضهم حين أعيته الحيلة افترض أن البحرين هما موسى والخضر. أى أنهما بحران من المعرفة، بل وقال آخرون إن شخصية الخضر هى شخصية اعتبارية أو رمزية، بل وأكثر من ذلك فقد أنكر بعضهم أن يكون موسى

عليه السلام هو صاحب هذه القصة بل هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وقيل موسى بن أفرايم بن يوسف.

** وادى النمل .. وسليمان عليه السلام:

يقول الكثير من المؤرخين إن سليمان عليه السلام، كان يملك جيشاً كبيراً فى العدة والعتاد.. حتى أن نملة قد رأت هذا الجيش المهول من حيث عدده فخشيت على نفسها وعلى قومها.. فقالت وفق ما ذكره مولانا تعالى فى كتابه العزيز: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة النمل الآية ١٨).

ووادى النمل هذا وفق ما ذهب إليه الكثير من المؤرخين هو واد كان يتبع مملكة سليمان والرأى الأرجح أنه وادى فى أرض فلسطين.

ونحن نعرف أن النمل يقيم دائماً منازله ومساكنه تحت الأرض.. وكثيراً ما يخرج القادرون منهم لالتقاط أرزاقهم من فوق سطح الأرض.

وهناك بعض المفسرين الذين يرون أن وادى النمل المقصود فى هذه الآية هو وادى السدير أحد أودية الطائف.

كما توسعوا فى الحديث عن هذا الوادى وطوله، فقال النيسابورى إن هذه النملة قالت قولتها هذه وسليمان عليه السلام كان على بعد ثلاثة أميال من هذا الوادى لأنه وعلى حد قوله لم يكن يتكلم خلق إلا حملته الريح وألقته فى مسامع سليمان عليه السلام.

وفى بعض الأخبار - والكلام لا يزال للنيسابورى - إن سليمان لما سمع قولها نزل إليهم وقال ائتونى بها فأتوه بها.. فقال لها لم حذرت النمل ؟ هل سمعت أننى ظالم؟! أم علمتم أنى نبى عادل؟! فلم قلت لا يحطمنكم سليمان وجنوده؟ قالت النملة: يا نبى الله أما سمعت قولى: وهم لا يشعرون.

وهناك رواية أخرى سردها لنا الدكتور البدراوى فيما يخص وادى النمل ولم يحدد لنا فيها موقفه ولأول مرة وعلى غير عادته.. يقول فيها: حتى إذا اقتربوا من

مساكن النمل بواد من الوديان، ولايهم تحديد مكانه!!- رأت نملة ولعلها كانت المسئولة عن حراسة قومها فى ذلك اليوم الذى مر فيه سليمان وجنوده، وتحذرهم من الأخطار - جيوش سليمان تقترب من أماكن سعيها فخشيت أن تحطمها فصاحت تحذر أقرانها وتأمرهم بأن يدخلوا مساكنهم تحت الأرض إلى أن يمر جيش سليمان.

ويؤكد فى السياق نفسه وعلى غير ما ذهب إليه بقية المفسرين أن الله تعالى قد أوحى لنبيه سليمان بما قالته هذه النملة، مما جعل سليمان عليه السلام يأمر بأن يبطىء جيشه المسير حتى تمر هذه النملة وغيرها من قومها فى سلام، عندئذ تبسم هذا النبى الكريم مما قالته، وقال آنذاك داعياً الله تعالى:«رب أوزعنى أن أشكر نعمتك». أى اجعلنى أوزع شكر نعمتك، أى ارتبط به، مجازاً عن ملازمة الشكر والمداومة عليه.(١)

** المغتسل .. حيث أراد الله الشفاء:

يتضح من تتبعنا الواعى لقصة نبى الله أيوب عليه السلام..وصاحب المغتسل.. أنه من أحفاد سيدنا إبراهيم الخليل. كما أن أمه حفيدة لوط عليه السلام، وبذلك وعلى حد قول الدكتور أحمد شلبى فإن العهد الذى عاش فيه يكون تقريباً بين عهدى يوسف وموسى عليهما السلام.

ولقد قصدنا بالحديث المقتضب عن نسب هذا النبى الكريم تحديد المكان الذى عاش فيه سواء وهو صحيح البدن أو من بعد مرضه، والمكان المقصود وفق ما جاء فى كل الروايات هو أرض الشام ويقع بالقرب من فلسطين، وبالتالى فإن هذا المغتسل إنما هو موجود فى أحد هذه الأماكن .

وفى أثناء زيارة خاصة لى إلى دمشق شاهدت داخل المسجد الأموى الكبير بئراً عميقاً فى وسط هذا المسجد كان النصارى من قبل يتعمدون بمائه.

هذه البئر ضُمت إلى المسجد بعد الفتح الإسلامى وكانت من قبل داخل الكنيسة التى كانت قائمة آنذاك من قبل بناء هذا المسجد.

ومن المحتمل أن تكون تلك العين أو هذه البئر الباردة هى التى تفجرت تحت

(١) أنبياء بنى اسرائيل - د. رشدى البدراوى.

قدمى أيوب عليه السلام وبوحى من رب العالمين من أجل شفائه، وذلك وفق ما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ الآية (٤٢) من سورة ص.

وهناك من المؤرخين ومن المفسرين الذين تحدثوا بتوسع عن هذا النبىّ وعن ابتلائه، ومن هؤلاء قول الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى: إن أيوب عليه السلام هو ابن أموص بن برزاح وينتمى نسبه إلى إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وكان صاحب أموال كثيرة وله أولاد، فابتلاه الله فى ماله وجسده وولده، وظل صابراً صبراً جميلاً حتى أتاه فرج الله فيما أوحى إليه به بأن يضرب الأرض التى كان يقم فوقها وهو سقيم.

وربما هى منزله أو مكان ملحق بهذا المنزل، فانفجرت تحت قدميه عين ماء كانت بالنسبة له مغتسل وشراب.

وهذا هو الماء الذى جعله رب العالمين شفاء له من كل أسقامه ومشكلاته الصحية.

وهناك تفسير مهم أورده لنا الدكتور أحمد شلبى فى كتابه عن أنبياء الله.. وفيه يقول: يروى أن زوجته عليه السلام كانت تساعده على قضاء حاجته، ولكنها أبطأت عليه فى إحدى المرات، فلم يجد ما يغتسل به بعد أن قضى حاجته ولم يجد من يأخذ بيده عقب ذلك. فجاءت لفته السماء «أركض برجلك» أى اضرب الأرض برجلك، فامتثل لأمر الله واضرب الأرض، فأنبع الله له عين ماء وأعلمه الله أن «هذا مغتسل وشراب» ليغتسل من الماء ويشرب منه.

وما إن فعل ذلك حتى أذهب الله عنه ما كان يعانى منه من الأذى والألم والسقم والمرض، وأبدله الله عقب ذلك صحة ظاهرة وباطنة وأعاد له جسمه كما كان من قبل تغمره الفتوة والصباحة والجمال [١].

وهناك بعض الروايات التاريخية التى تحدثت كذلك عن هذه العين. وهى التى حدثنا عنها الدكتور رشدى البدراوى عندما أشار إلى أن الله أنبع له عينًا وأمره بأن

(١) أنبياء الله - د. أحمد شلبى - مصدر سابق.

يغتسل فيها فأذهب جميع ما فيه من ألم ومرض. ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فأنبع له عينًا أخرى، وأمره أن يشرب منها فأذهب جميع ما فى بطنه من السوء. وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً، أى ذهبت القروح التى كانت بالجلد والآلام التى كانت فى الجسم.

وفى قول آخر: أنه عليه السلام قد ضرب برجله اليمنى فنبعثت عين حارة فاغتسل منها وبرجله اليسرى فنبعثت عين باردة فشرب منها، ولكن ظاهر المعنى هو عدم التعدد باعتبارها عين واحدة كانت له مغتسل وشراب.

وقالوا أيضاً: لما دعا جبريل عليه السلام فأخذه بيده ثم قال: قم فقام من مكانه، وقال: اركض برجلك فنبعثت العين فاغتسل وشرب وبرأ.

** الغار .. وصاحبة ثانى إثنين:

فى حياة نبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام أماكن مشهورة كثيرة جاء ذكر بعضها فى القرآن الكريم وتولت السيرة النبوية وكُتابها إكمال الحديث عن هذه الأماكن، وكان لنا شرف الإشارة إلى كل هذه الأماكن فى كتابنا الذى أصدرناه منذ عدة سنوات تحت عنوان «أماكن مشهورة فى حياة محمد».

وها نحن الآن نختتم حديث هذا الفصل الخاص بالأماكن المشهورة التى ذُكرت بكتاب الله وارتبطت بحياة الأنبياء وبرسالتهم السماوية بالحديث عن «الغار» الذى ذكره ربنا تعالى فى كتابه العزيز، وكان بمثابة الوعاء الآمن الذى استوعب النبى الكريم وصاحبه وكان له دوراً كبيراً فى حمايتهما وحماية الإسلام.

وفى حقيقة الأمر وكما يؤكد ذلك الدكتور أحمد شلبى فى حديثه عن السيرة النبوية العطرة. أن الإسلام ارتبط فى مسيرته الطويلة بغارين.. غار منهما بدأ فيه الوحى وظهر الإسلام، ذلك هو غار حراء.. وغار آخر بدأت به الهجرة النبوية. تلك الهجرة التى هيأت للإسلام أن يصبح أقوى من أعدائه.. ذلك هو غار ثور.

ونحن نضيف إلى ما قاله المؤرخ الدكتور أحمد شلبى. أن الله تعالى لم يذكر لنا

فى كتابه العزيز صراحة إلا غار واحد فقط، وإن لم يصرح لنا باسمه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الآيـــة الأربعين من سورة التوبة.

هذا الغار الذى شهد بدايات ساخنة لمطاردة أهل قريش كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل والذى وصف لنا رحلته عليه الصلاة والسلام إلى ذلك الغار والتى كانت بتوفيق ورعاية من الله العظيم.

وهو يقول فى هذا الوصف: «وفى اليوم الثالث حين عرفا - أى محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبى بكر- أنه قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما ببعير له، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما. فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء فى رحالهما فشقت نطاقها وعلقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر . فسميت بذلك بذات النطاقين».

ثم امتطى كل رجل بعيره ومعهما طعامهما ومع أبى بكر خمس آلاف درهم هى كل ماله. وزادهما اختفاؤهما بالغار ذلك النسيج الخاص بالعنكبوت والحمامتان والشجرة. (١)

وغار ثور يقع فى جبل ثور الذى يقع على بعد خمسة كيلومترات جنوب مكة المكرمة، ويتسم بالمشقة فى الصعود، فهو على حد قول الدكتور أحمد شلبى: إن الصعود إلى غار ثور أشق وأصعب حيث فيه الكثير من المرتفعات، ويصعب أن يصل الإنسان إلى قمة من قمم ذلك الجبل ثم ينحدر بضع عشرات من الأمتار، ثم يصعد ثانية قمة أخرى من قمم الجبل ثم يعود للانحدار وهكذا عدة مرات، إلى أن يصل إلى القمة التى يقع بها الغار والذى اختبأ فيه رسولنا وصاحبه.

ويضيف الدكتور أحمد شلبى: وفى جبل حراء ليس هناك إلا غار واحد هو غار

(١) حياة محمد ﷺ - د، محمد حسين هيكل.

حراء، أما فى جبل ثور فهناك عديد من الغيران، وهذا ما جعل من الصعب البحث فى كل غار عن محمد وصاحبه لكثرتها وانتشارها هنا وهناك، وربما بحثت قريش فى غار ثم بحثت فى غار آخر، وثالث فوجدت الحيوانات والزواحف، ثم توقفت لكثرة الغيران وللإحساس بعدم جدوى البحث فيها.

ليس هذا فقط بل إن غار ثور فى موقعه كان يناسب حال الاختفاء كما يوجد فى سفحه سهل به بعض المراعى مما يتيح للمرافق للنبى وصاحبه أن يرعى غنم أبى بكر بعيداً عن ذلك الغار حتى يستطيع أن يصعد للغار ليلاً ليحمل ألبان الأغنام للرسول ﷺ وصاحبه.

وبخلاف ذلك فقد تحدث العديد من الجغرافيين عن هذا الجبل وما احتواه من غار أمين وما آل إليه الآن إذ أكدوا أن العمران بمكة المكرمة قد وصل إلى سفوحه الدنيا ففى طرفه الشمالى يقع حى الهجرة وعلى طرفة الجنوبى الغربى حى بطحاء وفى جنوبه الشرقى يقوم حى العوالى .. وهى الضاحية الجنوبية الجديدة لمكة المكرمة.